

حول جدل في الجامعة

للأستاذ محمد أحمد خلف الله

نقول بها إن لم تكن مؤصلة وإلا فليدلى الشيخ وقد ماذا يكون موقفه من العلم حين ثبت بقرائن مادية بقول بها علماء الجولوجيا من أن هذا البيت ليس أول بيت وضع للناس من الناحية الزمنية أبصر على موقفه لم يرجع إلى قصد القرآن ويفهم ما فهمه بعض المفسرين من أن الأولية هنا ليست أولية الزمان .

ولو قرأ الشيخ المقال الافتتاحي في عدد الرسالة الذي نشر فيه مقاله وعنوانه (القرآن والنظريات العلمية) لوجد الضرورة القصوى الداعية إلى تأصيل هذا الأصل في فهم نصوص القرآن لو كان غير مؤصل في فهم عبارة كل متكلم . لكنه أصل لا نعرف أحداً يستطيع المشاحة فيه ؟ ولكن ؟

٢ - وقلت إن القصص القرآني من التشابه فقال الشيخ فلسنا نعرف أحداً من الأصوليين ولا أحداً من المسلمين يعتبر القصص القرآني متشابهاً . كما يقول في موطن آخر فالأستاذ الإمام لم يقل إن القصص من التشابه ولم يقل بذلك مسلم قبله أو بعده ...

ونبدأ مع الشيخ بالعموم الجريء في قوله إنه لا يعرف أحداً من المسلمين يعتبر القصص القرآني متشابهاً ونضع بين يديه ما في التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لأبي حيان ج ٢ ص ٣٨١ طبعة السعادة سنة ١٣٢٨ هـ ونصه [وقال مقاتل المحكمات خمسمائة آية ... الخ والتشابه القصص والأمثال . وقال يحيى بن يعمر المحكم الفرائض والوعد والوعيد والتشابه القصص والأمثال .] ثم نضع قول الطبري في جامع البيان في تفسير القرآن ج ٣ ص ١٠٧ الطبعة الجمنية ونصه [والتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار في السورة فقصه بانفاق الألفاظ واختلاف المعاني وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني .]

ثم نضع قول الطبري في كتابه مجمع البيان في تفسير القرآن ج ١ طبع سيداً ص ٤٠٩ ونصه [والتشابه ما تكرر ألفاظه كقصة موسى وغير ذلك عن ابن زيد] . وهذا الرأي هو الذي نقله الأستاذ الإمام في تفسير المنار حيث لم يكتف بما نقله الرازي من أقواله في التشابه (أنظر المنار ج ٣ ص ١٦٥) ولا نطيل بنقله ولعل في هؤلاء واحداً يكون من المسلمين عند الشيخ ؟

فإذا انتقلنا إلى الخاص وهو نقل الأصوليين أحلنا الشيخ على إيراد الآمدي لهذا الرأي في كتابه الأحكام ج ١ ص ٢٣٨ طبعة المعارف ومناقشته له .

تحت هذا العنوان كتب حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الفتاح بدوي المدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر يقول « ولكن الذي لنا وللمعاهد خاصة هو القيامه على الحقائق العلمية وعلى الحقائق الدينية نتقى عنهما الخبث وندافع عنهما ككل من يحاول عليهما العدوان . » وأنه مادام يملك المقال الذي كتبته في الرسالة . عدد ٧٤٣ فإنه يملك باباً وسيماً من المناقشة والحساب في مسائل علمية ودينية لها أكبر الخطر ويترب عليها أعظم النتائج العلمية والأدبية والاجتماعية والقانونية إلى أن يحصل على أشياء أخرى غير المقال .

ومناقشة الأستاذ لهذا المقال قسمان مسائل وشتائم فليبدأ الحديث عن المسائل .

١ - قلت من المعروف دينياً ألا نستنتج من نص قرآني أمراً لم يقصد إليه القرآن . فقال الشيخ هذه الدعوى نهجهم عارم على العلم وعلى القرآن جميعاً وبين ذلك بقوله أليس القرآن الكريم كلاماً له الدلالات المنطقية الثلاث المطابقة والتضمنية والالتزامية التي لكل كلام سواء في ذلك كل أنواع الكلام .

ولا نفهم كيف يكون لكل كلام دلالات ثلاث تقصد منه مع أن عياره الثن - الذي يعرف بعلم البيان - « والإيراد المذكور لا يتأتى بالوضعية أي بالدلالة المطابقة ويتأتى بالمقابلة أي التضمنية والالتزامية . »

ومعنى ذلك كما يلحظ القارئ أن الإيراد البياني بالنجوز والاستمارة والكفاية ... الخ لا يكون إلا ببعض هذه الدلالات . ولذا لا ندرى كيف حكم الشيخ بالدلالات الثلاث لكل كلام .

ثم أين ما يقوله البيانيون ورجال البلاغة من حال التشكك وحال المخاطب والقرائن المعقاة وأين السياق والمقام حيث يقولون لكل مقام مقال أين كل هذا يا صاحب الفضيلة أليس كل هذا يدل على أنه لا يصح أن نستنتج من أي نص أمراً لم يقصد إليه القائل .

ثم هذه الآية نفسها التي أوردتها الشيخ وهي أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة تدل الدلالة القوية على تأصيل القاعدة التي

هذا الأساس ويكفي أن نحيل الشيخ إلى الصفحات من ٢٨٠ — ٢٨٢ من الجزء الأول ليعرف أن الأستاذ الأمام قد فسر قصة آدم من سورة البقرة على أنها قصة تخيلية .

على أنا نستطيع أن نضع بين يدي الشيخ هذا النص القاطع الذي لا يحتمل شكاً في أن مذهب الأستاذ الأمام هو هذا .

جاء في النار : ١ ص ٣٩٩ الطبعة الأولى ما نصه [ومن البديهي أن ذكر القصة في القرآن لا يقتضي أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحاً فذكر السحر في هذه الآيات لا يستلزم إثبات ما يعتقد الناس منه كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التي علمت من النقي لا تستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت في القرآن ولو لم يكن ذكرها في سياق النقي .

قال الأستاذ الأمام ما مثاله . بينما غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الفارين وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار فحكاية القرآن لا تمدد موضع العبرة ولا تتجاوز مواطن الهداية ولا بد أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح .

وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله (كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من السر) وكقوله (بلغ مطلع الشمس) وهذا الأسلوب مألوف فائقاً نرى كثيراً من كتاب المربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لا سيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يستقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية .

ويقول أهل السواحل غربت الشمس أو سقط قرص الشمس في البحر أو في الماء ولا يعتقدون ذلك وإنما يبرون به عن الرئي [. انتهى بنصه من حديثه عن قصة هاروت وماروت وبعد أفلا يرى الشيخ أن الأستاذ الأمام وأن الشيخ رشيد رضا يذهبان إلى أن كل ما ذكر في القصص القرآني لا يلزم أن يكون صحيحاً لأنه ذكر في القرآن بل يكون غير صحيح وإنما ذكره القرآن وهو يعتقد بنصه لأنه ذلك هو الأسلوب

كما نضع بين يديه عبارة الشوكاني في كتابه إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص ٢٨ ونصها (ومثل المحكم الفرائض والوعد والوعيد والمتشابه القصص والأمثال) .

فهل لم يعرف الشيخ واحداً من هؤلاء جميعاً ؟ .

٣ — وقلت إن من المفسرين من لا يلتزم أن كل ما ورد في القصص القرآني من أحداث قد وقع بل بعضه أحداث غير واقعة فقال الشيخ :

ولا نعرف أحداً من الأصوليين ولا من السليين لا يقول بأن ما ورد في القرآن من القصص إنما هو أحداث وقعت وحوادث هي خلاصة الحقيقة التي وقعت في سواف الأزمان .

وإقحام الشيخ الأصوليين هناك لا معنى له فليسمع كلام المفسرين الذين تحدث عنهم إذ يقررون أن من القصص القرآني أحداث لم تقع .

جاء في ابن كثير : ١ ص ٥٩٠ بعد تفسيره لقوله تعالى ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ... الخ ما نصه (عن ابن جريج عن عطاء أن هذا مثل) وقد وضع على لفظه مثل رقم ١ وكتب على الهامش بآلة الطباعة هذه العبارة (يعني أنها ضرب مثل لا قصة واقعة) .

وجاء في الرازي : ٢ ص ٣٣٣ نسخة الصالة بدار الكتب وذلك بصدد الحديث عن قصة إبراهيم والطير ما نصه [السالة الثانية . أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهم وأن إبراهيم قطع أعضاءها ولحومها وريشها ودماها وخلط بعضها على بعض غير أبي مسلم فإنه أنكر ذلك وقال : إن إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالا قرب به الأمر عليه والمراد بصره من إليك الأمالة والترين على الأجابة أى فعود الطير الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأنتك فإذا صارت كذلك فأجعل على كل جبل واحداً حال حياته ثم ادعهم يأتينك تسمياً والفرس منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل الممثلة] .

وجاء في النار : ٣ ص ٥٢ بعد تفسيره لقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ما نصه [ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم] .

وقد كرر الأستاذ الأمام تفسير بعض القصص القرآني على

هجرة النصارى :

يا صاحب الحوض المطهر ..

للشاعر محمد هارون الخلو



هل غير بابك للمؤمن باب
شمت بنورك في البرية آية
كفل الإله أنا بظلك نجوة
الكوكب الدرى في أفق الورى
زل الأمين عليه يحمل معجزاً
آى من الكلم الجوامع لم يزل
فيض من الألق السنى تفرقت
ما كان شاعر أمة وقبيلة
بل كان ملهم حكمة وشريعة
بعث النبى وقومه فى غمرة
ورثوا عن الأشياخ من آبائهم
اللات والعزى وآلهة الهوى
والرأى وهو من القطانة والحجى
والقتل وهو على النفوس محرم
والخلف داء فى القلوب أصابهم
فندا الرسول عليهم يقيقته
فأضلهم شيطانهم إذ ردهم
ماضى لو تبعوا الهدى من ربهم
قد كذبوه وناهضوه وإنه
يدعو إلى التوحيد وهو جيلة
برهانه نور الكتاب مفصلاً
أيقن عقل أن تقوم خليفة
ما غير رب العرش فى ملكوته
حملوا الأذى عنه وحمل عنهم
بتآمرون عليه وهو مناصح
ضايقوا بدين الله وهو مبلج

يا خير من تسمو به الألقاب
هى فى الخلائق سنة وكتاب
من كل ما يحشى الورى وبها
هذا النبى ، تبارك الوهاب
للمرتجى به هدى وثواب
للقفل منها منطق وخطاب
منه وشائع سحر من عجاب
هذا الزكى الطاهر الأبواب
تسموها الأخلاق والآداب
وحديثهم فى الرسلين كذاب
يهتان ما شبا عليه وشابوا
تسمى لها الأعناق والأذنان
تقضى به الأزالام والأنصاب
لم يبق منه النار ما هو عاب
فى مقتل ففدوا وهم أحزاب
والحق سيف يمينه وقراب
فى غيهم خاب الدعى وخابوا
وسعى بهم نحو الفلاح ركاب
فيهم لينبوع جرى وسحاب
دانت بها ربورها الألباب
ولهم حجاج خاسر وسباب
ربظلمها تقسابق الأرباب
بين الخلائق قاهر غلاب
ما يحمل النصره والأحباب
أيفيد نصيح فيهم وعتاب
ضاح يشع ضياؤه الخلاب

لمادى فى التخاطب وهو الذى يجرى عليه الأدباء .

على أنى أستطيع أن أذهب مع الشيخ إلى أبعد من هذا فأقول له
إن الأستاذ الإمام يفضل هذه الطريقة فى التفسير وهى طريقة
التأويل على غيرها .

قال رحمه الله ج ١ ص ٢٧٣ ما نصه (أفلا تزعى أن الله
ملائكة فى الأرض وملائكة فى السماء ؟ هل عرفت أين تسكن
ملائكة الأرض ؟ وهل حددت أماكنها ؟ ورسمت مساكنها ؟
وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ؟ ومن يكون
عن يسارك ؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضىء لك فى الظلام
أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام ؟ فلوركت إلى أنها قوى
أو أرواح منبهة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وأن الله
ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك وبالعبرة التى تلقفتها عنهم كي
لا يوحشك بما يدهشك وترك لك النظر فيما تظمن إليه نفسك
من وجوه تعرفها أفلا يكون ذلك أروح لنفسك وأدعى إلى
طهارة عقلك ؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئاً من وراء حجاب ؟
ووقفت على سر من أسرار الكتاب ؟ فإن لم تجد فى نفسك
استعداد القبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب
ويفوض فى إدراك الحقيقة ويقول (آمناً به كل من عند ربنا)
فلا ترم طلاب العرفان بالريب ما داموا يصدقون بالكتاب الذى
آمنت به ويؤمنون بالرسول الذى صدقت رسالته وهم فى إيمانهم
أعلى منك كمياً وأرضى منك برهم نفساً .

ألا إن مؤمناً لو مات نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه
على النحو الذى يظمن إليه قلبه كما قلنا كان من دينه فى ثقة
وحن فضل ربه فى سعة) انتهى بنصه .

والآن ماذا يرى الشيخ ؟ وماذا يرى غيره من الثائرين ؟
إننا لننتل معهم بقول القرآن الكريم (وجادلهم بالتى هى
أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .
ومن هنا سندرس عن القسم الثانى من مقال الشيخ وهو قسم
الشكائهم له بيقفه الحق ويصل إلى الرشده ويقف على أسرار
قرآننا الكريم .

محمد أحمد خلف الله
كلية الآداب — جامعة فؤاد